



The Algerian Sahara in the works of the French orientalist Henri Duveyrier

Dr. Ahmed Bennani

University: Tamanghasset University Center – Algeria



Received: 2/3/2019

Revised: 9/4/2019

Accepted: 11/5/2019

Published online: 11/6/2019

* Corresponding author:

Email:

benani.ahmed@cu-tamanrasset.dz

Citation: Radif.M.(2019). *The Algerian Sahara in the works of the French orientalist Henri Duveyrier*. International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA, 1(2).

<https://doi.org/10.65811/122>

<https://doi.org/10.65811/121>

International Jordanian journal
Aryam for humanities and social
sciences: [Issn Online 2706-8455](https://doi.org/10.65811/121)

Abstract: The researcher tries in this paper to find out the role of one of the European recitals in exploring the Algerian sahara and to identify the specificity of Algerian society, namely, Duvier, this explorer who traveled to Algeria and moved from the south to its north, east and west, so his inhabitants sat and merged with them, and attended Their councils, without their customs and traditions, collecting their heritage, registering their privacy, and monitoring their nature, their mountains, their mountains, their sands, their plants, their rituals, their religious methods, it is a study that stands for the role of this European explorer in monitoring the cultural richness and geographical diversity of the Algerian desert.

Keywords: Duvier, Works, Sahara, Algeria

الصحراء الجزائرية في أعمال المستشرق الفرنسي هنري دوفرييه

الدكتور احمد بناني

الملخص: إن الباحث يحاول في هذه الورقة الوقوف على دور أحد المستكشفين الأوروبيين في استكشاف الصحراء الجزائرية والوقوف على خصوصية المجتمع الجزائري، وهو دوفرييه هذا المستكشف الذي رحل إلى الجزائر وارتحل من جنوبها نحو شمالها وشرقها وغربها، فجالس سكانها. واندمج معهم، فحضر مجالسهم، ودون عاداتهم وتقاليدهم، وجمع تراثهم، وسجل خصوصياتهم، ورصد طبيعتهم جبالها رمالها فجاجها، ونباتاتها، وطقوسها، وطرقها الدينية.

الكلمات المفتاحية: دوفرييه، أعمال، الصحراء، الجزائرية.

المقدمة

إن المستشرق الفرنسي هنري دوفيرييه من الجغرافيين الفرنسيين الذين استعانت بهم السلطات الفرنسية لاستكشاف الصحراء الجزائرية هذا الفضاء الذي كان يفتقد المستعمر لمعلومات دقيقة حوله حيث كان الاعتماد في كثير من الأحيان على السكان المحليين في معرفة هذه الصحراء وجغرافيتها ومنطقتها الواسعة فكان اللجوء إلى المتخصصين أبلغ الأثر في التوصل إلى حقيقة هذه الصحراء وثقافتها المتنوعة وعاداتها وتقاليدها الثرية وهو ما جسده هذا المستشرق في أعماله ومؤلفاته.

مؤلفات دوفيرييه تمثل خلاصة رحلة استكشافية قادت (هنري دو فيرييه) إلى محطات مهمة في الجنوب الجزائري أهمها محطة وادي ميزاب، البيض، الأغواط، الأوراس، عمق الصحراء الكبرى، وقد أهدته تلك الرحلة للحصول على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الفرنسية وهو ما جعلنا نختار هذا المستشرق لنقف على الصورة التي نقلها عن الصحراء الجزائرية في كتبه وعن ملامح المجتمع الذي كان يستكشفه وبخاصة أنه اعتمد فيها كثيرا على السكان الأصليين في رصد تجليات الثقافة الدين العادات التاريخ في الصحراء الجزائرية، فكيف تتجلى صورة الصحراء الجزائرية في مؤلفات المستشرق الفرنسي هنري دوفيرييه؟

هنري دوفيرييه المستكشف الجغرافي

ولد هنري دوفيرييه في ٢٨ فيفري ١٨٤٠م بباريس والده شال دوفيرييه (charles Duveyrier) (١٨٠٣-١٨٦٦) كان عضوا فاعلا في الحركة السانسيمونية (Saint-simoniens) وهي حركة تعود الى كلود (هنري دوروي) كونت سان سيمون (Saint simon) وهو السياسي الاقتصادي والاجتماعي الذي كان همه العمل على تغيير المجتمع النخبوي (شخوم، ٢٠١٢، ص ٣١٥)، فهو عمود من أعمدة الحركة السانسيمونية والتي كانت تسعى إلى إعادة بناء المجتمعات وفق رؤى النخبة وتغيير قناعاتها، وهو ما من شأنه إحداث نقلة نوعية في الأفكار والطروحات السائدة في المجتمع، وتحطيم بعض المسلمات. تلقى (هنري دوفيرييه) تعليمه الأول في المؤسسات الابتدائية الخاصة في فوجيرارد (vaugirard) بمقاطعة السين، ثم انتقل إلى ألمانيا حيث درس في جامعة ليبزغ (leipzig) حيث تعلم اللغة العربية على يد المستشرق (هاينريخلبرخت فلايشر) (١٨٠١-١٨٨٨) HeinrichLeberecht Fleischer ثم عاد إلى فرنسا حيث زاد في تعميق دراسته للغة العربية ، ويظهر أنه استفاد من سيرة أبيه الذي كان يعد من متميزي عصره في الأدب الفرنسي (Vapeau, 1870, p ٦١٤)، فهو من مرتادي أفضل منطقة عرفت بالتطور الكبير للدرس الانثروبولوجي والتاريخي والمجتمعي، وبخاصة اشتهار منطقة ليبزغ بالدرس اللساني المقارن وكذلك الدرس اللساني للغات الشرقية، وهناك تفرغ لدراسة اللغة العربية على يد المستشرقين، وبذلك حاز سبقا في تعلم اللغة العربية وهي مفتاح الولوج إلى المجتمعات العربية وثقافتها، ومفتاح الاطلاع على التراث العربي واستكناه درره، وتوجيهه بحسب منطلقاته وتكوينه الفكري .

قبل أن يبلغ دوفيرييه سن العشرين حتى بدا عمله الميداني الأول اكتشاف الجزائر بداية من مدينة الأغواط ثم توجه نحو الجنوب الذي كان يسمى ببلاد السودان في بداية القرن الثامن عشر الميلادي ، فتوغل في الجنوب بمساعدة التوارق وهذه الرحلة التي قام بها جعلته يحظى بتكريم الجغرافيين الفرنسيين وذلك من خلال تنويجه بالميدالية الذهبية من قبل الجمعية الجغرافية الفرنسية وهو ما جعله يحتل مرتبة مرموقة في هذه الجمعية فأصبح من أهم أمنائها السريين (Narcisse, 1989, p ٢٢٣)، كانت عناية دوفيرييه بالمجتمع الجزائري كبيرة، فلم يبلغ العشرين حتى سبر أغوار أهم المدن الجزائري وشرع في اكتشاف خصوصياتها، وهو ما يتجلى في وقوفه على الجنوب الجزائري بدءا بمنطقة الأغواط ثم الجنوب الجزائري عموما، وهو ما جعله يقف على حقائق تاريخية واجتماعية كبيرة حيث اعتبر الانجاز الذي قام به في استكناه خصوصية تلك المناطق عملا جبارا استحق عليه تكريم جمعية الجغرافيين الفرنسيين الذين كانوا يجتمعون تحت لواء الجمعية الجغرافية الفرنسية فحاز التكريم الذهبي وأصبح مقدما لدى هؤلاء وأميناء من أمناء سرهم.

رحلة دفيريه إلى الجنوب غيرت مجرى حياته وجعلته متعلقا بالرحلات ، فبعد أن كانت المهمة الموكلة إليه في إطار الجمعية الجغرافية هي إيجاد الروابط التجارية بين السودان (الصحراء الكبرى) والشمال الجزائري ،ظهر تأثره النوعي بالطريقة السنوسية التي تنتسب إلى محمد بنعلي السنوسي (١٢٧٥-١٢٠٦هـ/١٧٨٧-١٨٥٩ م)، فلم يتوقف عن الرحلات ، فانتقل إلى شط الجريد سنة ١٨٧٤ ، ورحلات أخرى قادته إلى المغرب الأقصى وليبيا في السنوات الاخيرة من حياته وهكذا توفي في ٢٥ أبريل ١٨٩٢م (شخوم، ٢٠١٢، ص٣١٥-٣١٦) ، فدويريه سبر أغوار الجنوب الجزائري في بحثه عن العلائق بين الصحراء الكبرى والشمال الجزائري اجتماعيا وتاريخيا واقتصاديا، وهو ما جعله يتأثر بخصوصية المجتمع في الصحراء الكبرى حيث كانت تنتشر السنوسية وبخاصة في ليبيا، وهو ما جعله يوسع نطاق رحلاته لتشمل جميع مناطق الصحراء الكبرى وشمال إفريقيا باحثا عن الخصوصية ونقاط التلاقي التاريخية والثقافية والتجارية.

فيعتبر هنري دويريه من أهم الشخصيات التي تقاطع معها مذهب السانسيونية و التصوف عبر الطريقة السنوسية ، فعمل جاهدا على فتح بعض زواياها في أقصى بلاد السودان ، كما أن التجانيين قدموا له دعما ملحوظا في رحلته وهو ما يترجم الحقيقة التي تؤكد بأن التصوف وأصوله التاريخية يعود في نشأته إلى تأثر بعض المسلمين بالنسك الذي كان في الأديان التي سبقت المسلمين ، ويذكر بعض الباحثين تأثره بالحركة الماسونية وإن لم تكن عضويته ظاهرة للعيان ومع ذلك لا يمكن فصل مهمته العلمية والشخصية التي تمثل قناعاته الدينية والفكرية عن ظاهرة الاستعمارية (شخوم، ٢٠١٢، ص٣١٦) فقد أسهم دويريه في انتشار الطريقة والتصوف على ما ارتبط به التصوف من تأويلات تعلق بصلته بنسك وعقائد أُمم مختلفة، بل وذهب البعض إلى ربط بعض نسكه بالماسونية التي كان يمثلها دويريه بشكل من الأشكال فاستطاع التماهي مع المجتمعات التي استكشفها وحاول ترويج التصوف والطريقة وفق ما يخدم أهدافه وغاياته التي لا يمكن فصلها عن الاستعمار وتمهيد الطريق لتسليم مفاتيح الفكر والثقافة والتاريخ والعقائد لأهدافه الخفية وطوحاته في اختراق المجتمعات وخصوصيتها.

مؤلفات هنري دويريه المستكشفة للصحراء الجزائرية :

كتب دفيريه عدة مؤلفات في مجالات مختلفة منها ما يتناول الجانب الجغرافي والاستكشافي وأخرى تتناول الرحلات يمكن إجمالها في المؤلفات الآتية : (Narcisse, 1889, p. ٢٣٣)

رحلة في بلاد الميزاب Voyage dans le pays de Beni Mzab الذي ظهر في ١٨٥٩.

في هذا الكتاب وقف على عادات ساكنة وادي ميزاب، ورصد مظاهر مجتمعهم ، وخصائص لغتهم، ووقف على تفرد هذا المجتمع في جوانب كثيرة من بينها النظام الذي يحكمه، والمجلس الذي يحتكم إليه المجتمع.

دويريه نزوله إلى مدينة الجزائر اتجه صوب غرداية ومنها سافر إلى القليعة ولم تكن قد وطئتها قدم أوروي فقام بعمليات فلكية في ظروف قاسية رفض السكان مده بما يحتاج إليه من المؤن وال زاد قرر أن يسلك طريق العودة إلى الشمال، وفي سياق إقامته في القليعة ورحيله عنها يقول بأن رحلته تبدو في الوهلة الأولى هزيمة حيث طرد من المدينة واضطر تحت التهديد إلى الخروج منها ليلا في ظروف صعبة لكنه اعتبرها ناجحة حيث يقول بأنه أقام بهل ليلتين كالسجين لكن ذلك لم يضايقه، فيعتقد بأن الطريق انفتحت أمامه وهو الانطباع الذي حمله (العربي ، ١٩٨٣، ص٨٤)، فهو يؤكد بأنه لم يلق القبول من ساكنة غرداية ومع ذلك أصر على اختراق المجتمع هناك بل الصد الذي واجهه جعله يتشبث بضرورة استكشاف خصوصية المنطقة.

رسائل مجموعة في الآثار الرومانية بمنطقة الأوراس Letters sur les inscriptions recueillies dans lèAures في سنة ١٨٦١ م .

في هذا الكتاب رصد صلة منطقة الأوراس بتاريخها مبرزاً جوانب الأصالة الرومانية في الآثار التي تقف أثرها وخصوصياتها.

استكشاف الصحراء - توارق الشمال Exploration de sahara -les touareg de nord الذي ألف

سنة ١٨٦٤

في هذا الكتاب تعمق في الحديث عن خصوصية المجتمع التارقي وتنوع عاداته وتقاليده، وتميز فنونه، لغته عن سائر اللغات، وخصوصية الطقوس التي تميز مناسبات المجتمع التارقي.

فدوفرييه تعرف على أحد التوارق في واحة الأغواط ولم تلبث أن تحولت المعرفة إلى صداقة غذتها في نفسه تلك القصص والأساطير التي سمعها في بلده عن نبل هذا الشعب وشجاعته وصرامته، وقد صادف أن كان الطوارقي يستعد لسفر العودة إلى بلده فوجه له الدعوة لزيارة الطوارق (العربي ، ١٩٨٣، ص ٨٣)، فقد تعرف في رحلته إلى الأغواط على من زاد شغفه بمنطقة التوارق ووجهت له دعوة لزيارتها وهو ما حققه بالفعل فيما بعد.

كما أن دوفرييه قام بإعداد رحلته الاستكشافية لتكتسي طابعا علميا فأحاطها بكثير من العناية والتدقيق، فاطلع على عديد الكتب، واستشار كثيرا من المتخصصين الأوروبيين في شؤون الصحراء، فتعلم الأدوات وطرق تحديد المواقع طولاً وعرضاً، وهو أمر حيوي، في كل محاولة للقيام باستكشاف علمي، فزار عديد المتاحف، وتمكن من اتمام معلومات عن الجيولوجيا وعلم الطبيعة، كما طلب من المستشرق الناقد رونان مده بمعلومات هم الإثنولوجيا والسلالات الصحراوية (العربي ، ١٩٨٣، ص ٨٤)، فقد كان عازما على رحلة استكشافية علمية تسير أغوار المجتمع الجزائري بمختلف تنوعاته، فاستشار وجمع معلومات تدلل له طرق البحث في خصوصية المجتمع الجزائري بمختلف تمثلاته.

وفي غضون رحلته إلى الطوارق قام بأبحاث مستفيضة في كل مكان مر به عن السكان ولتحديد موقعه الجغرافي والتعرف على النباتات، والمعادن التي تصادفه في طريقه، وباختصار، فقد قام بمفرده بنفس المجهود الذي توفره عادة بعثة علمية، فاتجه إلى طوارق الشمال الذين يسكنون جبال التاسيلي (آجار) وللوصول إلى هناك سلك طريق غدامس، كما يؤكد بأنه تلقى مساعدة كبيرة من أمينوكال (الخنوكن) والشيخ عثمان (العربي ، ١٩٨٣، ص ٨٥)، فدوفرييه قاد برحلة استكشافية لمجتمع التوارق ساعده فيها أعيان المجتمع التارقي وزعماءه، فتتبع النباتات والمعادن ومواقعها، وكذلك المنطقة الجغرافية الصحراوية وخصوصيتها.

كما أن دوفرييه لما وصل إلى غدامس رفقة الشيخ عثمان فقد كان ينوي أن يتخذ من غات المرحلة الثانية ، ولكن الحالة المضطربة التي كانت تسود هذه المدينة جعلته يعدل عنها ويسلك الطريق التي تمتد إلى طرابلس حيث تقدم إلى الوالي التركي يرجوه فيه أن يصدر أمرا عاما إلى جميع موظفي الولاية في المناطق الصحراوية بأن يتولوا حمايته ويمنحوه الضيافة (العربي ، ١٩٨٣، ص ٨٥)، فقد حظي بالرعاية والحماية وهو ما مكّنه من استكشاف الصحراء دون خوف، فاستعان بساكنة الصحراء فمهدوا له الطريق ويسروا له المهمة.

تاريخ الاستكشاف في الجنوب والشمال الغربي للبيض (جرفيل) Historique des exploration de sud et (de nord-ouest de Gèryville) سنة ١٨٧٢.

هذا الكتاب رحلة لسير الصحراء الجزائرية والوقوف على عادات المجتمع في عمق الصحراء الجزائرية، مبينا خصوصية اللباس والعادات بمنطقة البيض.

ليوينغ ستون واكتشافاته في الجريد التونسي (بحيرات إفريقية الشرقية) (Explorations dans la région des lacs) (de Lwington et ces l'Afrique orientale) ألف سنة ١٨٧٣ م.

في هذا الكتاب رصد لجان من جوانب شمال أفريقيا وخصوصية المجتمعات المغاربية المتاخمة لبحيرات إفريقيا الشرقية من خلال الوقوف على المظاهر الاجتماعية والثقافية، والعادات والتقاليد.

بحر داخلي في الجزائر (Une mer interieur en Algerie) ظهر في سنة ١٨٧٤ م.

هذا الكتاب يرصد الكاتب عمق خصوصيات المجتمع الجزائري وتنوع عاداته وتقاليده متوسعا في الخصوصية الجغرافية للجزائر وارتباط التنوع الثقافي واللغوي بها.

رحلة في الصحراء من طرف نوربيرد ونودوبيري (Dourneaux- Dupéré- unvoyage aux sahara par)
(norbert) ظهرت سنة ١٨٧٤م.

رصد لخصوصية الصحراء الجزائرية ووقوف على خصوصية المجتمع الجزائري في الصحراء، وتنوع عاداته وتقاليده.
رسائل أثناء المهمة في شط الجريد التونسي (Lettres Durant la mission aux chotts) في سنة ١٨٧٥م.
التقرير الأولى في المهمة نحو شطوط الصحراء وقسنطينة (premier raport sur la mission des chotts de)
(sahara et de contantine) في ١٨٧٥م.

جبال الأوراس (Les montagne de Laures) ظهر في ١٨٧٦ م .
مسار الرحلة من متليلي إلى حاسي برقاي ومن القليعة إلى متليلي (Itinéraire de Methlelili à)
(HassiBergkaoui et d'El Golèa à Methlelili) ظهر في ١٨٧٦م.

مشاركة لا رغو فيكتور (١٨٤٠-١٨٩٧) في استكشاف الأهقار (La souscription Largeau au Ahagar)
(في سنة ١٨٧٦م)

وهو كتاب يرصد خصوصية المجتمع بالأهقار وتنوع العادات والتقاليد والفنون، وتنوع اللهجات التارقية، وخصوصية هذه اللغة.

تطور الجغرافيا في الجزائر منذ ١٨٦٨ إلى ١٨٧١ (Les progrès de la géographie en Algérie depuis)
١٨٧٦ في (١٨٧١ l'année 1868 jusqu'à l'année)

الأخوية الإسلامية لسيدي محمد بن علي السنوسي توزيعها الجغرافي (La confrérie musulmane de sidi)
(mouhamed ben ali el senousi , son domaine géographique) في ١٨٨٤ م .

إن معظم المؤلفات تؤكد بأن دوفرييه لم يكن إنسانا عاديا، فقد كان في مهمة علمية وبحثة بأهداف غير معلنة ومع ذلك خص المجتمع الجزائري بدراسة معمقة فضيت منطقة ميزاب بدراسة للعادات والتقاليد واللغة ، وتركيبية المجتمع وثقافته في مؤلفه رحلة في بلاد الميزاب، وكذلك خص منطقة الأوراس بدراسة مستفيضة تناول فيها التاريخ الروماني في منطقة الأوراس باحثا عن صلة خصوصية المجتمع بتاريخه الروماني عن طريق رسائل تناولت قضايا متفرقة، ليعمق الدراسة بتخصيص مؤلف للمجتمع الجزائري بالجنوب الجزائري منطقة التوارق بالتحديد وذلك في مؤلف موسوم استكشاف الصحراء توارق الشمال سير فيها أغوار خصوصية المجتمع عند التوارق وكذلك العادات وتمثلات التاريخ والإرث الثري الذي يعرف به المجتمع التارقي لغة وثقافة وفكرا، كما خص منطقة البيض بدراسة معمق تناول فيها تاريخ الاستكشاف في الجنوب والشمال الغربي للبيض متناولا بتوسع خصوصية المجتمع وتطورات عبر الحقب الزمنية وكذلك مكوناته وتشكلات الثقافة فيه، وأهم مؤلف له هو الأخوية الإسلامية لسيدي محمد بن علي السنوسي توزيعها الجغرافي حيث ترجم فيه اهتمامه الكبير بالطريقة وبخاصة الدعم الذي وجده من قبل التيجانية، فكتب عن السنوسية وعن توزيعها الجغرافي، وله مؤلفات كثيرة تناول فيها الجنوب الجزائري تناولا عميقا مفردا لكل حقل دراسات وأبحاث دقيقة ولا تخلوا تلك الأبحاث من القيم العلمية إضافة إلى غايات أخرى تخدم أهداف المستعمر لسير أغوار المجتمع الجزائري ومختلف مناطقه، وتعدد أعراقه وتنوع ثقافته وثرأ لغته.

3- كتاب هنري دفيريه استكشاف الصحراء - توارق الشمال (Exploration de sahara-les touareg de)

:(noed

لقد ألف هنري دوفيرييه كتابه استكشاف الصحراء توارق الشمال (Exploration de sahara-les touareg denord) سنة ١٨٦٤ حيث تناول دوفيرييه في هذا المؤلف التكوين الجغرافي الطبيعي للمنطقة وغيرها ، كما تحدث عن الجانب البشري عن توزيع السكان وانتشارهم الجغرافي مع اعتماده الكبير على كتب الرومان في الحديث عن هذه المنطقة (Devreyuer,1864,p,٢٨٥) ففيه عرج دوفيرييه على التكوين الجغرافي الطبيعي للمنطقة، وتحدث عن الجانب البشري وتوزيع السكان من خلال استناده إلى كتب الرومان في نقل أخبار المنطقة وسرد تاريخها ونقل خصوصيتها.

فالصحراء منطقة وجدت بها الرسوم والصور المنقوشة بطريقة عجيبة، وقد استخدمت في النقش آلات دقيقة لهذا الغرض، وهي تصور لنا الحياة اليومية التي كان يعيشها السكان، برسومات رائعة الأشكال محكمة التخطيط، وتتجلى بألوان زاهية تم تركيبها من مواد كيميائية ويرجع تاريخ هذا النحت إلى ٩٠٠ سنة (ق.م)(بوشوارب، ١٩٩٥، ص ٦١)، وهو تأكيد على قدم هذه المنطقة وعراقة تاريخها الضارب في القدم، فتعددت الرسومات على واجهة الكهوف، والصخور، لتحمل للمستقبل أخبار الماضي وحضارته وتنوع ثقافته.

إن كتاب دوفيرييه يعتبر دراسة شاملة لمنطقة التوارق الشمالية، وتتضمن الجغرافيا وطبقات الأرض الأحوال الجوية وموارد المياه، كما تشمل ملاحظات تتعلق بالحيوانات والنباتات وأحوال المعيشة، والطقوس الدينية وأخلاق التوارق، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأصلهم، وكل ذلك بتفصيل ودقة متناهية (العربي، ١٩٨٣، ص ٨٧)، فهو دراسة تناولت الجغرافيا ورصد التنوع النباتي ، والعادات والتقاليد، والوقوف بدقة على خصوصيات المجتمع التارقي ومناطق تواجده.

فدوفيرييه كان يشاهد ويتابع، ويسجل، فكانت المعلومات التي يقدمها يستقيها من الكتب القديمة، ومن روايات السكان، فهي تمثل مشاهداته الشخصية، فهي دراسة لا تقتصر على توارق الشمال بل تتناول توارق الجنوب (العربي، ١٩٨٣، ص ٨٧)، فلم يترك مصدرا إلا وعاد إليه، ولم يترك رواية إلا عاد إليه، فهو يأخذ من كل شخص يمكنه أن يقدم معلومة تخص جانبا من جوانب منطقة الصحراء وتشبث التارقي بها. وصف دوفيرييه للتارقي ساكن الصحراء

يشير هنري دوفيرييه إلى أن التوارق يتميزون بطول أجسامهم بعضهم يبدو وكأنهم عمالقة نحفاء حادون عصبيون عضلاتهم كأنها نابض حديدي، يبيض البشرة أطفالا ، غير أن الشمس تغير ألوانهم مع الوقت، وعند العبيد هي امتزاج بين اللون الاسود والابيض ، وجوههم تشبه الصنف القوقازي، الوجه بيضاوي طويل عند البعض ودائري عند البعض الآخر عريضي الجباه ، سود العيون صغار الأنف أفواههم متوسطة وشفاههم دقيقة ، لحاهم سوداء غير أنها نادرة اسنانهم بيضاء وجيلة قليل منهم ذو العيون الزرقاء (Devreyuer,1864,p,٣٨٢-٣٨١) ، فهو ينقل بشكل دقيق خصوصية المجتمع التارقي فيشرع في وصف الانسان التارقي وصفا ينم على أن الرجل جالسهم وعایشهم، فأدرك خصوصياتهم الدقيقة، وامتزاجها حيث وقف على مكونات هذا المجتمع بأعرافه وطبقاته، مقدما وصفا دقيقا لألوانهم وأجسادهم، ووجوههم، وطولهم.

المجتمع الأهقار بأعين دوفيرييه

يذهب هنري دوفيرييه إلى أن المجتمع التارقي مجتمع تغلب عليه الطريقة التيجانية حيث يقول أغلب مريدي الزاوية التيجانية من الطوارق حيث أسس أحد زعمائهم الشيخ عثمان الذي اشتهر بزيارته لباريس زاوية على سفح هضبة التاسيلي وأسماها تماسين أي تيماسين الصغيرة ولها فروع في وادي سوف حيث يملك زاوية بقمار تعتبر إقامة صيفية لرؤساء قبيلة تامهالت وعائلاتهم ، وله إمتدادات إلى غاية تونس غير أن مريديه أقلية بليبيا (Devreyuer,1864,p,٢٥٩) ، فالمجتمع بمنطقة الأهقار مجتمع متصوف حسب دوفيرييه، فهو مجتمع تشرب الطريقة التجانية حيث ذهب إلى أن غالبية المجتمع التارقي ينتمي إلى الطريقة التجانية، فبيّن استكشافه الدقيق لخصوصية المجتمع التارقي مذكرا بأن أحد زعماء التوارق اسمه الشيخ عثمان أسس زاوية على

سفح هضبة التاسيلي، أسماها تماسين أي تيماسين الصغيرة وهو شيخ عرف بزياراته الكثير إلى باريس كما ينقل دوفرييه وهو ما مهد له الطريق لمعرفة هذه الطريقة وتشعباتها ليوقف على امتدادها إلى وادي سوف حيث تعتبر منتجعا صيفيا لقبيلة تامهالت وعائلاتهم، وهي طريقة تمتد إلى الصحراء الكبرى عموما وتحترق شمالها وجنوبها، فدوفرييه يؤكد تحكمه في تاريخ المنطقة ويرسخ قناعته بأن المجتمع التاريخي مجتمع صرقي طرفي تجاني.

والتيجانية هي طريقة صوفية يؤمن أصحابها بجملة من الأفكار والمعتقدات الصوفية ويزيدون عليها الاعتقاد بإمكانية مقابلة النبي مادية واللقاء به لقاء حسيا في هذه الدنيا وأن النبي قد خصهم بالصلاة (الفتاح لما أغلق) التي تحتل لديهم مكانة عظيمة، ومؤسس التيجانية هو أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني، فلكل طريقة أواردها ونسكها حيث تبين للمريدين الطريق الذي يسلكونه متأسين بمنهجها وتوجيهات مشايخها.

تتميز التيجانية بمعتقدات من ذلك إيمان مريديها بوحدة الوجود والفناء الذي يطلقون عليه اسم وحدة الشهود، ويقسمون الغيب إلى قسمين غيب مطلق استأثر الله بعلمه وغيب مقيد وهو ما غاب عن بعض المخلوقين دون بعض، ويقول زعيم الطريقة أحمد التيجاني أنه التقى النبي لقاء حسيا ماديا وأنه قد كلمه مشافهة وتعلم منه الصلاة الفاتح لما أغلق وأكد بأنه أخبره بأن المرة الواحدة من هذه الصلاة تعدل قراءة القرآن ست مرات، فمعظم الطرق تتوشح باعتقادات ومكاشفات لمشايخها ومجالستهم للنبي عليه السلام في رؤاهم، فينقلون بأن تلك الرؤى بها توجيهات رسمت معالم الطريقة، وبينت أواردها، ومنهجها.

ركز هنري دوفرييه على الطريقة التيجانية وارتباطها بالمجتمع الأهقاري مبرزا بعض الفتاوى التي ساقها أن الاحتلال الفرنسي عند زعماء هذه الطريقة ومريديها أمر قدرى، فنقل تأثرهم بموت السلطان العثماني عبد المجيد الأول (١٨٢٣-١٨٦١) فاعتبروا موته بمثابة انتصار فرنسا عليه وتمكنها وغلبتها، ويذكر بالعداوة التي كانت بين تجانية تماسين والأتراك، والتي من أسبابها التقارب الفرنسي التيجاني، وكيف أن التيجانية وجدوا أنفسهم بفعل تراكم الأحداث أكثر قربا من الفرنسيين (شخوم، ٢٠١٢، ص ٣٢٠) من خلال سرد دوفرييه لهذه الحادثة يغتنم أحداث التاريخ ليجعلها تحدم أهداف المستعمر مذكرا بالعداوة التي كانت بين الطريقة التيجانية والأتراك ليعمق صلة فرنسا بهم، ويوجههم بأن نصر فرنسا نصرهم، وفكك لهم من التسلط العثماني، وهو ما جعله يرسخ عقيدة القضاء والقدر التي تسلم بها التيجانية وتدخل في ذلك وضعية المستعمر وتربطه بها.

يؤكد دوفرييه بأن المسألة التي كانت بين التيجانية والفرنسيين وجعلت زاوية الطريقة التيجانية تيماسين من أكثر الزوايا أبهة وعن حيث شبهها بدار سلطان تونس أو مصر، وهذا يدل على مدى تمكن التجانيين المادي واستغلالهم لفرصة سيطرة الفرنسيين وقضائهم على عدوهم القديم (العثمانيين) وهو ما جعل دوفرييه يبني علاقة جيدة مع شيخها سيدي محمد العيد ولقبه بقلب الأخ كما يذكر (Devreyier, 1864, p. ٣٠٩)، إنما الأهداف الخفية، ومربط الفرس في كل الدراسات والأبحاث التي كان يجريها دوفرييه إن أبحاثه ليست عبثا، فاستكشافه واعتناقه الطريقة واختراقه الطريقة التيجانية والسوسية كان من أجل هذه اللحظة التي تستثمر في عداوة التجانيين للأتراك ونسج فرنسا لخيط دقيقة مع هذه الطريقة دون علم أصحابها باسم التاريخ والتعاون ونشر الصوفية، لكن أهدافها أن يستسلم المجتمع بعد أن تم إيهام زعمائها بأن فرنسا هي المنجي من تسلط الأتراك، فهذا هو سبيل العلم والتاريخ وتوجيهه لأغراض خاصة.

تبقى نظرة المستكشفين الفرنسيين للتصوف في مجتمع الأهقار شبيها بالطقوس النصرانية ففي حديث متعمق ومتوسع من أحد المستكشفين الفرنسيين وهو فرنسوا برنارد عن التصوف في مجتمع الهقار في كتابه (Deux Mission Françaises chez les Touareg) ينظر إلى هذا النوع من التدين كنظرته إلى المظاهر الدينية النصرانية بل يذهب إلى تشبيه مقدم الصوفية بالكاهن فالزوايا تقترب في فهم هؤلاء من أديرة النصارى (Bernard, 1896, p. ١٤)، فيحاول المستشرقون التأكيد على أن التصوف شبيه بالطقوس النصرانية، وما تشبيهمهم لمقدم الصوفية بالكاهن لتقريب الأديرة من الزوايا الطرقية، كل هذا من

خلال دراسات وأبحاث تغير في المفاهيم وتقض أركان العقائد الصحيحة لامتلاك مفاتيح التأثير في المجتمعات، ومفاتيح تفكيكها وإثارة النزعات والخلافات بين مكوناتها.

دوفرييه عندما عاد إلى فرنسا استكمل أبحاثه ودراساته، فوضع كتابا كبيرا عن الطرق الدينية الإسلامية كما نشر عددا من الوثائق عن جغرافية أفريقيا كانت أساسا لكثير من الدراسات التي ظهرت بعده (العربي، ١٩٨٣، ص ٨٨)، فدوفرييه استغرق في استكشاف الطريقة بالجزائر، وطقوسها، فتوج أبحاثه بدراسة عميقة عن نشأتها معتقداتها، أبعادها شيوخها، وارتباط بعض طقوسها ببعض الطقوس النصرانية حسب رأيه، وهو ما جعله مرجعا مهما في الطريقة في شمال إفريقيا.

اللغة التارقية في رأي دوفرييه

يشير دوفرييه إلى أن اللغة التارقية لسان المجتمع المتميز بعاداته وتقاليده المتفرد بلغته التي تكتب بحروف تسمى التيفيناغ أو التماشق التي استطاع الانسان التارقي الحفاظ عليها عبر تعاقب الدهور والأزمان بفضل الدور الذي تقوم به المرأة التارقية في تعليم أولادها هذه اللغة مؤكدا بأنه عندما عزم على تعلم التارقية أخبر بأنها من مهام المرأة في المجتمع التارقي المتميز ، (Devreyuer, 1864, p ٣٨٨) ، فتعمق (دوفرييه) في دراسة اللغة التارقية بعد أن جالس ناطقيها وعاشهم، وتماها مع عاداتهم وتقاليدهم فوفق على أنها لغة تعليمها من شأن المرأة، وتتميز بحروف التيفيناغ أو التماشق، وهي لغة صمدت عبر الأزمان للدور الفاعل للمرأة في توريثها لأبنائها، إنها لغة الأم صانتها ونقلتها عبر الأجيال.

يشير دوفرييه إلى أن حروف التيفيناغ تكتب بشكل عمودي أو أفقي حسب رغبة الكاتب من اليمين إلى اليسار هي الطريقة الأكثر اعتمادا ، (Devreyuer, 1864, p ٣٨٩) وهو تأكيد على تحكمه في خصوصية اللغة التارقية ، فهي لغة حسبه تكتب عموديا أو أفقيا بحسب رغبة الكاتب، بل وكذلك من اليمين إلى اليسار، فهي لغة مطواعة بها سر كبير في حروفها وفي اتجاه كتابتها ولولا مجالسته لهم لما استطاع الوقوف على خصوصيتها.

فالتيفيناغ هي الحروف التارقية التي يكتب بها التوارق لغتهم، ونجد هذه الكتابات في مغارات جبال الأكاكوس وتاسيلي والهقار، وجبال وتحتوي هذه الأبجدية على اثنين وعشرين حرفا ولهذا يضطر التوارق لتركيب حرفين لإعطائهم حرفا آخر غير موجود في أبجديتهم، وتلتقي حروفهم مع الحرف الحميري القديم المسند في كثير من الحروف، مثل (ل)(ا)(ش)و(الهاء)(+) حيث لا تزال مستعملة في الكتابة الأريترية حتى الآن كما أن الدال (د) هو نفس الدال العربي، (القشاش، ١٩٩٥، ص ٣٣-٣٤)، حروف التيفيناغ حروف عريقة متناثرة على الكهوف والصخور، تمثل رموز اللغة التارقية.

كما أن حروف التيفيناغ تكتب من اليمين إلى اليسار في العادة ، أما إذا أراد التارقي أن يكتب عن موضوع مهم يخشى أن يقع في أيدي أعدائه فإنه في هذه الحالة يضطر للكتابة في كل الاتجاهات، من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، ومن فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق، وهنا يستغرق فك الرسالة وتفكيك رموزها أيام (القشاش، ١٩٩٥، ص ٣٤)، فالتيفيناغ مرنة في كتابتها ويستعملها التارقي بذلك بحسب أهمية ما يكتب، وبحسب الموضوع ومن يوجه إليه.

دوفرييه باعتماده على امنوكال اينخونكن والشيخ عثمان وجد حسن الاستقبال من التوارق فاندماج فيهم، بحيث كانوا يعتبرونه كما لو كان واحدا منهم، فكان يحضر الاجتماعات التي يتناقشون فيها في أمور القبيلة، كما تعلم لغة تماشق وحروفها الهجائية (تيفيناغ) التي لم يكن يعرفها سوى عدد صغير من التوارق انفسهم، وكذلك كان يرافق القبيلة التي نزل عندها أشهرا طويلة في تنقلها وترحالها، وهو في كل ذلك يتعلم ويسجل ملاحظاته (العربي، ١٩٨٣، ص ٨٦)، فقد فتح له التوارق قلوبهم فأصبح جليسهم فتعلم لغتهم وسجل عاداتهم وتقاليدهم، وخبر مجتمعاتهم، فدون مآثرهم، وثقافتهم، وجغرافية منطقتهم، إنه استغل الشيخ عثمان، وامنوكال اينخونكن في السير قدما في الاندماج في المجتمع ، فحضر نقاشاتهم، ومجالس كبرائهم، فعدوه فردا منهم، وهو ما يسر مهمته.

السحر وطقوسه في مجتمع الأهقار عند دوفرييه

يورد (هنري فيرييه) بأن الإيمان بالقوى الخفية سلوك مسيطر على مجتمع الأهقار فالمجتمع يخشى هذه القوى الخفية وسكان الصحراء الجزائرية عموماً يخشون قوى الجن، فلا يوجد حسب قوله في إفريقيا فرد مستنير أو جاهل متعلم أو أمي لا يرد إلى الجن كل غريب يحدث فوق الأرض دون تفسير (Devreyuer, 1864, p. ٤١٥)، وهذه تجليات خصوصية المجتمع التارقي الذي استكشفه دوفرييه، فهو إيمان بالأساطير التي ينسجون عليها قصصهم وحكاياتهم، ويرصعون بها تاريخهم، فكل غريب وكل ما صعب تفسيره يرد إلى قوى خفية غيبية تتحكم فيه يخشاها الفرد التارقي حتى غدت من إحدى مسلماته الحياتية.

إن الخوف من القوى الخفية حسب هنري دوفرييه لا زال يؤثر في سلوكات الفرد والمجتمع بالأهقار فيتصرفون تصرفات متصلة بهذا الاعتقاد حيث يورد بأن التارقي لا ينام تحت سقف أبدا خوفاً من أن يبقى محبوساً من طرف (الهابنين) أي الجن، (Devreyuer, 1864, p. ٤١٩)) فطلت القوى الخفية حسب دوفرييه تقييد حركة الأفراد خوفاً من الجن القوى الخفية حسب، وهي من بين القوى التي يخشى الفرد التارقي النوم وحده لكي لا تسجنه وهذا لا وعي جمعي يشترك فالصورة التي صنعها الفرد التارقي عن القوى الخفية المسيطرة على حياته وعلى تقلبات حركتها وعلى ما غمض فيها وما التبس من مصائر أفرادها وتحول حياتهم.

يوكد هنري دوفرييه بأن هذه القوى الخفية تشكل الخطر الداهم في مخيلة الفرد والمجتمع في الأهقار فيلجأ الأفراد الذين تنتابهم هذه إلى حماية أنفسهم وأفراد عائلاتهم ببعض الوصفات السحرية والتي يعلقون بها كل ثقتهم متشبثين بقدرتها على دفع الضرر وإبعاد الخطر وجلب الحظ السعيد، فالتوارق حسب دوفرييه يؤمنون بالسحر والسحرة ويثقون يقيناً في قدرتهم على تحويل الإنسان إلى حيوان، فهذه المخاوف وما يتصل بها من خرافات أصبح الحرز يلعب دوراً مهماً في حماية التارقي من كل ما يواجهه من خطر أو يهدده من ضرر، وهو ما جعل التارقي يوصف بالمتطير، فافراد المجتمع الأهقاري يتطيرون، ويخافون من أشياء كثيرة لذلك تمتلئ رؤوسهم وأعناقهم وصدورهم بالتمائم، وهي تمائم تتكون من كيس من الجلد مزخرف تعلق في سير جلدي به عقد، وهناك نوعان من التمائم تمائم تمنح حاملها كل الخير الذي يطلبه وأخرى تبعد عن حاملها كل خطر أو شر يتوقاه، (Devreyuer, 1864, p. ٤١٩)) حديث دوفرييه عن المجتمع التارقي بهذه الدقة يشير إلى فهمه العميق لخصوصية هذا المجتمع، فمخيال الفرد التارقي ملئ بمخاوف من الجن ومن القوى الخفية، وهو ما جعل أفراد المجتمع يسلمون بطقوس السحرة رجاء أن تحميهم من القوى الخفية، فينقل دوفرييه إيمانهم العميق بقدره السحرة فهم حصنهم أمام القوى الخفية فلا يمكن أن تنازع تارقي عن عدم إمكانية الساحر تحويل الإنسان إلى حيوان إنها عقيدة بل تسليم بقوة السحرة، فارتبطة الأسطورة بالخرافات وعلقت اعتقادات بأذهان أفراد المجتمع التارقي فدب الخوف ولا مناص من مواجهته ما لم بالتمائم، فهي في لا وعي الإنسان التارقي جالبة للخير صارفة للشر؛ لذلك ينقل الإنسان التارقي ذراعه ورقبته بالتمائم وهي أكياس صغيرة من الجلد تعلق رجاء التحصين في الثقافة الشعبية التارقية والعادات التي درج عليها المجتمع، فنشأت مرتبطة بأساطير تشكلت في اللاوعي الجمعي للمجتمع.

كما أن التوارق يغلفون القبور بكثير من الأساطير المماثلة فيعتقدون بأن الجن والعفاريت تسكنها، ويزعمون أن شخصا مر بجانب القبور، فسمع أحاديث يتداولها الجن مع أصحاب القبور، وآخر شاهد مخلوقات مجنحة تقف على أحد القبور، ويقولون إنها ملائكة تترحم على صاحب القبر، كمل يزعمون أن قبورا لأشخاص مشهورين شاهدوا نورا يسطع عليها ليلاً (القشاطر، ١٩٩٥، ص ١٠٢)، وهذا دليل على تجذر الأساطير في حياة أفراد المجتمع التارقي، فيفسرون بها الظواهر الغريبة، ويربطون بها الكثير من الظواهر غير المألوفة.

كما يورد هنري دفير بيه بأن المجتمع التارقي يتميز بنوع من الطقوس يدعى بالاستحياء وهو من الطقوس التي يستدعى فيها التوارق الأرواح لمعرفة الغيب وهو من الطقوس التي تعتمد النسوة في المجتمع التارقي الأهقاري وذلك يعود إلى كثرة سفر الطوارق سواء من أجل التجارة أو الغزوات لمدة قد تطول وفي فترة غيابهم الطويل تنقطع أخبارهم، فتشتاق عائلاتهم لرؤيتهم فتعتمد النسوة إلى استدعاء من اشتقتن إليهم فيتزين بأحسن ما لديهن من لباس وحلي ومجوهرات ويذهبن إلى المقبرة يتمددن فوق قبور الأجداد، ويستحضرن روح من تأتي لهن بالأخبار والاستجابة لندائهن (إدبني) تتمثل لهن روح في شكل إنسان، فإذا اعجبت إدبني بالمستحضرة، يقص عليها ما حدث في الرحلة، أما إذا حدث العكس، فتعتمد تلك الروح إلى خنق المرأة، لأن النسوة يعرفن جيدا شروط إدبني فإنهن في كثير من الأحيان يأتين بأخبار يقال أنها تتوافق مع الحقائق التي مر بها المسافرون ويؤكدنها عند عودتهم، (Devreyuer, 1864, p. ٤١٥) فهذا جانب من خصوصيات الثقافة الشعبية التارقية حيث استدعاء الأرواح واستحضار أخبار من غابوا وانقطعت أخبارهم، إنه (إدبني) حيث تتمثل الأرواح في صورة إنسان إذا تناغمت مع المستحضرة فتقص أخبار من فقد وإذا لم تتفاعل مع روح المستحضرة خنقتها، إنه إغراق من دوفريه في نقل الثقافة الشعبية للمجتمع التارقي مؤكدا بذلك استكشافه العميق للمجتمع في عمق الصحراء الجزائرية، ووقوفه على دقائقه.

اللاثم التارقي عند دوفريه :

من مميزات زي الإنسان التارقي هو اللاثم الذي يطلق عليه " التوارق تيقلموست " وهو عمامة توضع بشكل خاص حسب طول وعرض معينين واللاثم في العادة يلبسه الرجال الأغنياء والنبلاء، فهو مقدس عندهم ، فالتارقي لا يسمح لأي أحد أن يرى وجهه حتى أهله وأقرب الأصدقاء، ويظل اللاثم على وجهه طول النهار والليل، وربما عند النوم وأثناء الطعام يكشف المثلث على فمه لتناول الأكل، منهم من يرفع اللاثم ويضع الطعام ثم يمضغ وربما أخذوا جانبا بعيدا عن الناس حتى لا يراهم أحد ، فاللاثم حين يوضع يغطي الرأس والجبهة والرقبة والعنق والوجه ، وهو قطعة قماش طويلة ملونة مطروزة من جهة وتوضع بحيث لا يمكن رؤية إلا العين التي بدورها تكون مغطاة بطرف هذه القطعة ، (Devreyuer, 1864, p. ٤٠٦)، فهي وقفة على لباس الانسان التارقي وإحدى مميزاته وهو اللاثم أو (تيقلموست) إنه عمامة التارقي وعلامة الإنسان الأزرق، إنه رمز الرجولة حيث يحمل قداسة ففي عرف التارقي ملازمة اللاثم لرأسه ووجهه ليلا ونهارا، فلا يرى وجهه ولا رأسه طيلة اليوم واللييلة، إنها عادة ربطت بعرف أصبح ملازم للفرد التارقي يعرف به، ويشار إليه بالبنان.

يورد ابن خلدون عن المثلثين حديثا يؤرخ لنسبهم فهم " المثلثون المواطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية، بالجنوب أبعدو في المجالات هناك منذ دهور ما قبل الفتح لا يعرف أولها فأصحروا عن الأرياف ، ووجدوا بها المراد، وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا عنها بألبان الأنعام ولحومها، انتبأوا عن العمران واستنساها، بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاروا ما بين بلاد السودان حجزا واتخذوا اللاثم خطاما، تميزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد وكثروا وتعددت قبائلهم من كذالة وملتونة، فمسوفه، فوتريكه، فناوكا، فزغاوه، ثم لمطه، أخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبيلة طرابلس وبرقة" (ابن خلدون، د ت، ص ٣٧٠-٣٧١)، إنهم المثلثون شعب متميز به ويعتبر اللاثم شعارا، يأمنون للبعد عن التسلط والقهر، ويأبون الأسر ويعشقون التحرر من رقة الاتباع وترك العنان للسباحة في فضاء الصحراء الساحر، ورمالها الذهبية ومظاهرها الخلافة.

القصيدة النشيد الوطني التارقي عند دوفريه:

يورد هنري دفيريه قصيدة وسمها بأنها النشيد الوطني للتوارق يقول فيها الشاعر : (Devreyuer, 1864, p. ٤٠١)
لعنة الله على أمك معطي الله إبليس يسكن جسدك/ هؤلاء الرجال التوارق أو تعتقد بأنهم جبناء، إنهم أعرف الناس بالسفر وبالقتال، يعرفون الرحيل عند الصباح باكرا و السير في المساء، يعرفون كيف يباغتون أي رجل وهو على سريره نائم، خاصة ذلك

الغني الذي ينام على ركبتيه وسط قصعة، ذلك الذي يزهو ببسط خيمته الواسعة، ذلك الذي يفتش زراية كلها وينام، وبالبزدة المذوبة والحليب الساخن الخارج من ضروع النوق، يجزون جسده برماهم الحادة كشكوة، فيطلق صرخاته على أن تخلق روحه، نجرده من أمواله دون أن نترك له قطرة ماء، وزوجته البطرة لن تتحمل خيبته، هنري دوفرييه ينقل لنا شعار الانسان التارقي الدال على نبلة وشجاعته ومواجهته للأهوال في أرضه الفسيحة، وأرجائها السحيقة الضاربة في القدم، ولغته الثرية، وعاداته وتقاليده العريقة، وثقافته الشعبية العميقة، إنها فضاء يستحق من لا يخشى الفناء، إنه التارقي من يجوب الفيافي ويقارع الخطوب.

خاتمة : ويبقى أن هنري دوفرييه استطاع التوغل في مجتمع التوارق وسبر أغوار عاداته وتقاليده ولغته وثقافته فأبدى إعجابه بمجتمع الأهقار لكن جهده يدخل في خانة تمهيد الطريق أمام المستعمر لإيجاد سبيل التوغل في ثقافة هذا المجتمع و السيطرة عليه انطلاقا من توظيف الزوايا وتوظيف اعتقادات أفراد المجتمع بزعمائها لحث المجتمع الأهقاري على الاندماج مع ثقافة الوافد والتماهي معها وعدم معاداتها وهو ما ذهب إليه المستكشفون بعيدا في توغلهم في جميع خصائص المجتمع وتعلم لغته ومجالسة أهله والاندماج في عاداتهم وتقاليدهم وتقريب مقدمي طرقهم وإجزال العطايا لمريديهم لكن مع ذلك ظل هذا المجتمع راسخا بعاداته شامخا بتقاليده ، وهو ما يفتح المجال للتساؤل أمام سر هذا الصمود والتشبث بميراث الأجداد على الرغم من استهداف المكونات وتوظيفها لإخضاع هذا المجتمع، والنيل من خصوصيته .

دوفرييه أصبح دليل مستكشفي الصحراء بفضل دراساته وأبحاثه فكل مستكشف للصحراء عليه أن يأخذ توصية من دوفرييه لأصدقائه من التوارق ليسهلوا مهمتهم الاستكشافية، فلا يستغني المستكشفون الأجانب عن خدماته، ومشورته، بل هو الذي قدم إلى الجمعية الجغرافية النتائج التي توصل إليها المبشر دوفوكول المستكشف لصحراء المغرب، وهو الذي استرشد به المستكشف النمساوي أوسكار لانز الذي كلفته الجمعية الافريقية الألمانية باستكشاف أطلس المغرب الأقصى.

قائمة المراجع

- بوشوارب، عبد السلام، الحَقَّار، أحمد، وأونجاد. (١٩٩٥). المتحف الوطني للمجاهد. الجزائر (National Museum of the Mujahid).
- دوفيرييه، هنري. (١٨٦٤). استكشاف الصحراء: الطوارق الشماليون. باريس. (Librairie Hachette).
- فوكون، ن. (١٨٨٩). حياة الجزائري. باريس. (Librairie Hachette).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (د.ت.). تاريخ ابن خلدون (المجلد ٦). بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- إسماعيل، عبد العزيز. (١٩٨٣). الصحراء الكبرى وسواحلها. الجزائر / (National Book Foundation): المؤسسة الوطنية للكتاب.
- شخوم، صالح ولد الرشيد. (٢٠١٢). وادي ريغ في كتب المستشرق هنري دوفيرييه (١٨٤٠-١٨٩٢): نموذج لدراسة نقدية. في أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في جنوب الجزائر خلال القرنين ١٢-١٣ هـ / ١٨-١٩ م من خلال المصادر المحلية (ص. ٤٥-٦٧). الجزائر: مطبعة منصور، المركز الجامعي بالوادي.
- فاييرو، غوستاف. (١٨٧٠). المعجم العالمي للمعاصرين: متضمّنًا مشاهير فرنسا والبلدان الأجنبية (الطبعة الرابعة). باريس : (Librairie Hachette).
- برنار، أ. (محرر). (١٨٩٦). بعثتان فرنسيتان لدى الطوارق (١٨٨٠-١٨٨١). باريس. (Jourdan).